****

هجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة المنورة

الهجرة النبوية : هي من أهم الاحداث التاريخية في الإسلام، وهي تعبير يشير إلى هجرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من مكة إلى المدينة مع مجموعة من أنصاره وأصحابه الذين عُرفوا بالمهاجرين فيما بعد، وبها بدأ العدّ التصاعدي في تاريخ الإسلام، مع أنّ هناك هجرتان سبقتا هذه الهجرة قام بها المسلمون، حيث هاجروا إلى الحبشة لما لقيه المسلمون من الظلم والمهانة من مشركي مكة ، لكن بخروج النبي منها بعد وفاة زوجته خديجة وعمه أبي طالب في العام الثالث عشر من البعثة عرف التاريخ مبدأ جديداً له .

خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من مكة ليلة ١ ربيع الأول ووصل إلى منطقة قبا وأقام فيها أول مسجد في الإسلام عُرف بمسجد قبا وانتظر هناك حتى وصول الإمام علي (عليه السلام) مع الفواطم ثم دخل المدينة في يوم ١٢ ربيع الأول .

<u>دوافع الهجرة من مكة الى المدينة :</u>

أولاً : إن مكة لم تعد أرضاً صالحة للدعوة ، فقد حصل النبي « صلى الله عليه وآله » منها على أقصى ما يمكن الحصول عليه ، ولم يبق بعد أي أمل في دخول فئات جديدة في الدين الجديد ، في المستقبل القريب على الأقل ؛ فإن البقاء في مكة ليس فقط لا مبرر له ، بل هو خيانة للدعوة الإسلامية ، ومساعدة على حربها ، والقضاء عليها ، ولا سيما بعد أن جندت قريش كل طاقاتها للصد عن سبيل الله، وإطفاء نوره ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .

نعم ، لقد كان لا بد من الانتقال إلى مركز آخر ، تضمن الدعوة فيه لنفسها حرية الحركة ، في القول والعمل ، بهدوء بعيداً عن ضغوط المشركين ، وفي منأى عن مناطق سيطرتهم ونفوذهم .

ثانياً : إن الإسلام وممثله وداعيته الرسول الأكرم « صلى الله عليه وآله » لا يمكن له أن يقتنع بهذا النصيب المحدود من التقدم ، لأن دينه دين البشرية جمعاء : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ .

ثالثاً : لقد رأت قريش أخيراً : أنها قد اهتدت للطريقة التي تستطيع بواسطتها أن تقتل النبي « صلى الله عليه وآله » ، دون أن تكون مسؤولة أمام الهاشميين بشكل محدد ، أو بالأحرى دون أن يستطيع الهاشميون أن يطالبوا بدم النبي « صلى الله عليه وآله » ، وذلك بأن يقتله عشرة ، كل واحد منهم من

قبيلة ، فيضيع دمه في القبائل ، ولا يستطيع الهاشميون مقاومتها جميعاً ؛ لأنهم إما أن يقاتلوا القبائل كلها ، وتكون الدائرة عليهم ، وإما أن يقبلوا بالدية ، وهو الأرجح ، وإذا قتل النبي «صلى الله عليه وآله » فإن القضاء على غيره من أتباعه يكون أسهل وأيسر ، ولا يشكّل لقريش مشكلة ذات شأن .

وبعد كل ما تقدم يتضح : أنه كان لا بد للنبي الأعظم « صلى الله عليه وآله » ، ولمن معه من المسلمين من الخروج من مكة إلى مكان أمن وسلام لا يشعرون فيه بأي ضغط ، يملكون فيه حرية الحركة ، وحرية الكلمة ، وحرية التخطيط لبناء مجتمع إسلامي يكون فيه النبي « صلى الله عليه وآله » قادراً على القيام بنشر دعوته ، وإبلاغ رسالته ، على النحو الأفضل والأكمل .

سر اختيار المدينة :

وأما عن سر اختيار النبي « صلى الله عليه وآله » للمدينة بالذات داراً لهجرته ، ومنطلقاً لدعوته ، دون غيرها كالحبشة مثلاً ؛ فذلك يرجع إلى عدة عوامل ، نذكر منها ما يلي :

١ – إن مكة كانت تتمتع بمكانة خاصة في نفوس الناس ، وبدون السيطرة عليها ، والقضاء على نفوذها الوثني ، واستبداله بالنفوذ الإسلامي ؛ فإن الدعوة تعتبر فاشلة ، وكل الجهود تبقى بدون جدوى ؛ فإن الدعوة كانت بحاجة إلى مكة ، بنفس القدر الذي كانت مكة بحاجة فيه إلى الدعوة .

فلا بد من اختيار مكان قريب منها ، يمكن أن يمارس منه عليها رقابة ، ونوعاً من الضغط السياسي والاقتصادي ، وحتى العسكري إن لزم الأمر في الوقت المناسب ، حينما لا بد له من أن يفرض سلطته عليها .

والمدينة ، هي ذلك الموقع الذي تتوفر فيه مقومات هذا الضغط ، فهي تستطيع مضايقة مكة اقتصادياً ؛ لوقوعها على طريق القوافل التجارية المكية ، وقريش تعيش على التجارة بالدرجة الأولى .

كما أن ذلك يهيئ للنبي « صلى الله عليه وآله » الفرصة لعرض دعوته على القوافل التي تتجه من بلاد الشام والأردن وفلسطين وغيرها إلى مكة ، والتمهيد لإفشال كثير من الدعايات التي يمكن للمكيين أن يطلقوها ضد الإسلام وأهله .

٢ – لقد عرفنا مما تقدم : أن الهجرة إلى المدينة هي الحل المفروض ، الذي لا خيار معه ؛ وذلك لأن الهجرة إلى الطائف لم تكن بالتي تجدي نفعاً لأن أهلها رفضوا الاستجابة إلى النبي «صلى الله عليه وآله» حينما هاجر إليهم ، لأنهم يرون : أن مكة هي التي تستطيع أن تفرض

إليهم .

وأما اليمن ، وفارس ، والروم ، وبلاد الشام وغيرها ؛ فقد كانت خاضعة لسلطة الدولتين العظميين ، اللتين لن يكون نصيب الرسول والرسالة منهما سوى المتاعب والأخطار الجسيمة .

وأما الحبشة فهي بحكم موقعها الجغرافي مفصولة عن مكة ، كما أنها بحكم واقعها الاجتماعي ، والسياسي ، والبشري ، والعنصري ، وبحكم كونها بلداً أفريقياً ، فإنها ليست بلداً قادراً على أن يقود عملية التغيير العالمية الشاملة ، لا اقتصادياً ، ولا سياسياً ، ولا عسكرياً ، ولا حتى فكرياً ، واجتماعياً .

أضف إلى ذلك : أن مهاجمة مكة بجيش من الحبشة لسوف يدفع العرب كافة إلى الوقوف إلى جانب قريش ضده ، بخلاف ما لو كانت عملية التغيير منطلقة من الداخل حينما يؤمن بدعوته الفقراء ، والمستضعفون ، ويواجه هؤلاء الملأ والمستكبرين من قومهم بالذات .

وهكذا يتضح : أنه ليس ثمة إلا المدينة ، والمدينة فقط ، موقعاً مناسباً للهجرة فكانت الهجرة إليها .

٣ - ومن الجهة الأخرى ، فإن المدينة كانت أغنى من مكة زراعياً ، أي أنها لو فرض عليها أن تتعرض لضغط تجاري من نوع ما - مع أنه ليس باستطاعة مكة أن تفعل شيئاً من ذلك - فإنها تستطيع أن تقاوم هذا الضغط ، وتحتفظ لنفسها بنوع من الحياة ، ولو بصعوبة ما ، من دون أن تستسلم لإرادة الآخرين ، وتنساق وراء رغباتهم ، كما كان الحال بالنسبة لغيرها .

هذا عدا عن أن الدعوة التي تحتاج إلى نشاط واسع ، وجهد شامل ، لأنها تريد أن تقود عملية التغيير الشامل على مستوى عالمي - هذه الدعوة - تحتاج إلى استقرار اقتصادي داخلي ، يستطيع أن يوفر الفرصة لحملة هذه الرسالة للحركة في سبيل نشر دينهم ، وبث رسالتهم .

٤ - وإذا كان الحج من أهم تشريعات الإسلام ؛ فما دامت مكة في أيدي الوثنيين ؛ فإنه سوف يفقد أثره وفعاليته في مجال التربية السياسية ، والاجتماعية ، وفي غير ذلك من مجالات ، وأيضاً ، فما دامت مكة في أيدي الوثنيين ، فلسوف يبقى لهم نفوذ واسع في القبائل العربية ، وقدسية من نوع ما في نفوسهم .

فلا بد إذاً من إخراجها من أيديهم ؛ لينتهي ما لهم من رصيد معنوي في نفوس الناس ، ولتتفتح القلوب بكل ما لديها على الدين الجديد ، وليتمكن المسلم من أن يؤدي إحدى أعظم شعائره - الحج - بحرية تامة ، دونما رادع أو زاجر .

وبعد هذا ، فإن أقرب المواقع إلى مكة هو المدينة ، وهي التي تملك إلى جانب قوتها الاقتصادية كثافة

سكانية جيدة ، تستطيع أن تقوم بالمهمة التي توكل إليها تجاه مكة على أكمل وجه ، ولا توجد هذه الميزة في أي من المناطق القريبة إلى مكة .

٥ – إن أهل المدينة كانوا في الأصل من مهاجري اليمن ، التي كانت تمتلك شيئاً من الحضارة البدائية في قديم الزمان ، فهم ليسوا أعراباً ؛ لتكون قلوبهم ممعنة في القسوة ، ولا كان ثمة زعامات ومصالح خطيرة لهم في المنطقة ، كما كان الحال بالنسبة لقريش .

٦ – ثم إن أهل المدينة قد ذاقوا مرارة الانحراف كأشد ما يكون ، وقد أنهكتهم الحروب (الحرب بين الاوس والخزرج) وأكلتهم ، ويعيشون في رعب دائم وخوف مستمر ، حتى إنهم ما كانوا يضعون السلاح لا في الليل ولا بالنهار .

٧ – لقد كانت بشائر اليهود بقرب ظهور نبي في المنطقة قد جعلت الكل مستعدين لقبول هذا الدين ، ولكنهم يحتاجون إلى مناسبات دافعة ، إلى ظروف مشجعة ؛ فلماذا يهملهم الرسول «صلى الله عليه وآله» ولا يهيئ لهم الفرصة لذلك؟! .

٨ – هذا كله ، عدا عن أن أهل المدينة أنفسهم قد طلبوا ذلك من النبي الأكرم « صلى الله عليه وآله » وبايعوه بيعة العقبة ، ووعدوه النصر ، والنبي « صلى الله عليه وآله » إنما يتصرف وفق الإرادة الإلهية التي لا تغيب عنها تلك المصالح وسواها .

التحضير للهجرة النبوية وإيثار الإمام علي (عليه السلام) :

بعد مكر قريش وتخطيطها لقتل النبيّ « صلى الله عليه وآله » نزل جبرئيل على رسول الله « صلى الله عليه وآله » بما كان من كيدهم، وأخبره الخبر ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ثمّ جاءه بأمر من الله في ذلك ووحيه، وما عزم له من الهجرة ، ثم دعا الإمام علي (عليه السلام) فقال له : " يا عليّ ، إنّ الروح هبط عليّ يخبرني أنّ قريشًا اجتمعت على المكر بي وقتلي، وإنّه أوحي إليّ عن ربي عزّ وجلّ أن أهجر دار قومي، وأن أنطلق إلى غار ثور تحت ليلتي، وإنّه أمرني أن آمرك بالمبيت على مضجعي لتخفي بمبيتك عليهم أثري، فما أنت صانع ؟ ، فقال الإمام علي (عليه السلام) أو تسلمنّ بمبيتي هناك يا نبيّ الله ؟ قال : نعم فتبسّم عليٌّ ضاحكًا، وأهوى إلى الأرض ساجدًا شاكرًا لما أنبأه به رسول الله من سلامته ، ثم قال لرسول الله : امضِ بما أُمرت فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي، ومرني بما شئت، وإنْ توفيقي إلّا بالله "

في الطريق إلى المدينة :

عن أبي عبد الله « عليه السلام » : إن رسول الله « صلى الله عليه وآله » لما خرج من الغار متوجهاً إلى المدينة ، وقد كانت قريش جعلت لمن أخذه مئة من الإبل ، خرج سراقة بن جشعم فيمن يطلب ، فلحق رسول الله ، فقال « صلى الله عليه وآله » : اللهم اكفني سراقة بما شئت ، فساخت قوائم فرسه ، فثنى رجله ثم اشتد ، فقال : يا محمد إني علمت أن الذي أصاب قوائم فرسي إنما هو من قبلك ، فادع الله أن يطلق إلي فرسي ، فلعمري ، إن لم يصبكم خير مني لم يصبكم مني شر ، فدعا رسول الله « صلى الله عليه وآله » : فأطلق الله عز وجل فرسه .

النبي (صلّى الله عليه وآله) في المدينة :

بعد خمسة عشر يوماً من إقامته « صلى الله عليه وآله » في قباء ، تحرك إلى داخل المدينة .

وقد اختلف المؤرخون في التاريخ الدقيق لخروجه « صلى الله عليه وآله » من مكة ودخوله قباء ثم المدينة اختلافاً كثيراً ، مع اتفاقهم على أنه قد دخلها في أوائل ربيع الأول ، وقد حقق العلامة المجلسي : أن هجرته « صلى الله عليه وآله » كانت في يوم الاثنين ، أول ربيع الأول ، وورود المدينة في يوم الجمعة الثاني عشر منه ، كما ذهب إليه الشيخ المفيد.

****

بناء المسجد :

اشترى النبي « صلى الله عليه وآله » – أو وهب له – موضع المسجد ، الذي يقال : إنه كان مربداً (محبس الإبل أو مكان تجمع التمر أو المكان الخالي خلف البيوت) ليتيمين من الخزرج ، كانا في حجر أسعد بن زرارة ، أو غيره اشتراه – على ما قيل – بعشرة دنانير .

فأسس « صلى الله عليه وآله » المسجد في ذلك الموضع ، ونقلوا إليه الحجارة من منطقة الحرة ، وشارك « صلى الله عليه وآله » بنفسه في نقلها ، الأمر الذي دفع الصحابة إلى الدأب في العمل ، والجد فيه .

وجعل طوله مئة ذراع في مثلها ، أو قريباً من ذلك ، وقيل : جعله سبعين في ستين ، وابتنى الرسول « صلى الله عليه وآله » مساكنه ، وابتنى أصحابه مساكنهم حول المسجد ، وكل قد شرع له إلى المسجد باباً ، وقد سدت الأبواب كلها فيما بعد سوى باب أمير المؤمنين « عليه السلام »

لماذا المسجد أولاً :

إن من الملاحظ : أن أول عمل بدا به « صلى الله عليه وآله » في المدينة هو بناء المسجد ، وهو عمل له دلالته وأهميته البالغة ، وذلك لأن المسلمين كانوا فئتين : مهاجرين وأنصاراً ، وتختلف ظروف كل من الفئتين ، وأوضاعها النفسية ، والمعنوية ، والمعيشية ، وغير ذلك عن الفئة الأخرى .

والمهاجرون أيضاً كانوا من قبائل شتى ، ومستويات مختلفة : فكرياً ، واجتماعياً ، مادياً ، ومعنوياً ، كما ويختلفون في طموحاتهم ، وتطلعاتهم ، وفي مشاعرهم ، وفي علاقاتهم ، ثم في نظرة الناس إليهم ، ومواقفهم منهم ، وتعاملهم معهم ، إلى غير ذلك من وجوه التباين والاختلاف ، وقد ترك الجميع أوطانهم وأصبحوا بلا أموال ، وبلا مسكن ، إلى غير ذلك مما هو معلوم ، وكذلك الأنصار ؛ فإنهم أيضاً كانوا فئتين متنافستين ، لم تزل الحرب بينهما قائمة على ساق وقدم إلى عهد قريب .

وقد أراد الإسلام أن ينصهر الجميع في بوتقة الإسلام ليصبحوا كالجسد الواحد ، في توادهم وفي تراحمهم وتعاونهم ، وغير ذلك ، وأن تتوحد جهودهم وأهدافهم ، وحركتهم ، ومواقفهم ، الأمر الذي يؤكد الحاجة إلى إعداد وتربية نفسية ، وخلقية ، وفكرية لكل هذه الفئات ، لتستطيع أن تتعايش مع بعضها البعض ولتكون في مستوى المسؤولية ، التي يؤهلها لها في عملية بناء للمجتمع المتكافل المتماسك الذي هو نواة الأمة الواحدة التي لها رب واحد وهدف واحد ، ومصير واحد .

وليصبح هذا المجتمع قادراً على تحمل مسؤولية حماية الرسالة ، والدفاع عنها ، حينما يفرض عليه أن يواجه تحدي اليهود في المدينة ، والعرب والمشركين ، بل والعالم بأسره ، لا بد أن تتصهر كل الطاقات والقدرات الفكرية والمادية وغيرها لهذا المجتمع في سبيل خدمة الهدف .

والمسجد هو الذي يمكن فيه تحقيق كل ذلك ، إذ لم يكن مجرد محل للعبادة فقط ولا غير ، بل كان الوسيلة الفضلى للتثقيف الفكري ، إن لم نقل : إنه لا يزال حتى الآن أفضل وسيلة لوحدة الثقافة والرأي ، حينما يفترض فيها أن تكون من مصدر واحد ، وتخدم هدفاً واحداً في جميع مراحل الحياة ، الشعور بالقدسية ، والارتباط بالله تعالى .

وخلاصة الأمر : أن العمل الاجتماعي عبادة ، والجهاد عبادة ، والعمل السياسي حتى استقبال الوفود وتدبير أمور المسلمين عبادة أيضاً .

وهكذا يقال في علاقات المؤمنين بعضهم ببعض ، وتزاورهم وحضورهم مجلس الرسول « صلى الله عليه وآله » وتعلمهم الأحكام ، فإن كل ذلك وسواه عبادة أيضاً .

والمسجد هو أجلى وأفضل موضع تتجلى فيه هذه العبادة ، كما أن المسجد هو الوسيلة الفضلى

وللتربية النفسية ، والخلقية ، والعقائدية .

وهو من الجهة الأخرى وسيلة لشيوع الصداقات ، وبث روح المحبة والمودة بين المسلمين ، فإنه حينما يلتقي المسلمون ببعضهم البعض عدة مرات يومياً في جو من الشعور – عملاً – بالمساواة والعدل ، وحينما تتساقط كل فوارق الجاه والمال ، وغيرها ، ويبتعد شبح الأنانية والغرور عن أفق هذا الإنسان ، فإنه لا بد أن تترسخ حينئذٍ فيما بين أفراد هذا المجتمع أواصر المحبة والتآخي والتآلف ، ويشعر كل من أفراده بأنه في مجتمع يبادله الحب والحنان ، وأن له إخواناً يهتمون به ، ويعيشون قضاياه ومشاكله ، ويمكنه أن يستند إليهم ، ويعتمد عليهم ، الأمر الذي يجعل هذا المسلم يثق بنفسه وبدينه ، وبأمته ، وليكون المثل الحي للمؤمن الصادق الواعي والواثق ، ولتكون الأمة من ثم خير أمة أخرجت للناس .

وبعدما تقدم ، فإننا نعرف : أن النبي « صلى الله عليه وآله » قد أسس المسجد ليكون بمثابة مركز للقيادة والريادة ، ففيه كان « صلى الله عليه وآله » يستقبل الوفود ، ويبت في أمور الحرب والسلم ، ويفصل الخصومات ، وفيه كان يتم البحث عن كل ما يهم الدولة وشؤونها ، والناس ، ومعاملاتهم وارتباطاتهم ، وليهب المسجد الناس نفحة روحية ، وارتباطاً بالله جل وعلا ، وببعضهم البعض في كل مجالات الحياة ، ومنطلقاتها ، بعيداً عن النوازع الذاتية ، وعن الحساسيات القبلية والعرقية ، وعن تأثيرات الفوارق الاجتماعية .

والخلاصة : لقد كان المسجد موضع عبادة وتعلم وتفهم لما يفيد في أمور الدين والدنيا ، وتربية نفسية وخلقية ، ومحلاً للبحث في كل المشاكل التي تهم الفرد والمجتمع ومكاناً مناسباً للتعارف والتآلف بين المسلمين ،إلى غير ذلك مما تقدم .

مشاركة النساء في بناء المسجد :

ورد في بعض النصوص : أن النساء قد شاركن في بناء المسجد، فكن يحملن الحجارة لبناء المسجد ليلاً والرجال نهاراً .

ونشير هنا إلى أمرين :

الأول: إن مشاركة المرأة في أمر كهذا ، له مساس بالحالة السياسية والاجتماعية والعبادية ، يعتبر أمراً مهماً جداً ، إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن المرأة لم يكن لها أي دور في الحياة وكان العربي يحتقرها ، ويمارس ضدها أبشع أنواع المعاملة.

بمقتضيات هذه الأخوة ، إلا أنه قد كان ثمة حاجة إلى إظهار ذلك عملياً ، بهدف توثيق عرى المحبة وترسيخ أواصر الصداقة والمودة كما هو معلوم ، وليكون الهدف السامي قد انطلق من العمل السامي أيضاً .

ثالثاً : دور المؤاخاة في بناء المجتمع الجديد : لقد كان الرسول الأعظم « صلى الله عليه وآله » بصدد بناء مجتمع جديد ، يكون المثل الأعلى للصلاح والفلاح ، قادراً على القيام بأعباء الدعوة إلى الله ، ونصرة دينه ، في أي من الظروف والأحوال .

وقد تقدمت – عند البحث عن عملية بناء المسجد – الإشارة إلى واقع وجود الفوارق الكبيرة بين المهاجرين أنفسهم ، والأنصار أنفسهم ، والمهاجرين والأنصار معاً – الفوارق – الاجتماعية ، والقبلية ، والثقافية ، والنفسية ، والعاطفية ، وحتى العمق العقيدي ومستوى الالتزام ، فضلاً عما سوى ذلك ، هذا بالإضافة إلى الظروف النفسية والمعيشية التي كان يعاني منها المهاجرون بالخصوص .

ومع ملاحظة حجم التحدي ، الذي كان يواجه هذا المجتمع الناشئ الجديد ، سواء في الداخل : من الخلافات بين الأوس والخزرج ، الذين كان الكثيرون منهم لا يزالون على شركهم ، ثم من المنافقين ، ومن يهود المدينة ، ومن الخارج : من اليهود ، والمشركين في جزيرة العرب ، بل والعالم بأسره .

مع ملاحظة كل ذلك ، وحيث أصبح من المفترض بهذا المجتمع أن يكون بمثابة كتلة واحدة متعاضدة ، ومترابطة ، بعد أن كانوا أحزاباً وجماعات وأفراداً فكان لا بد من إيجاد روابط وثيقة تشد هذا المجتمع بعضه إلى بعض ، وبناء عواطف راسخة ، قائمة على أساس عقيدي .

أن هذه المؤاخاة قد أقيمت على أساسين اثنين :

الأول : الحق : فالحق هو القاسم المشترك بين الجميع ، عليه يبنون علاقاتهم ، وهو الذي يحكم تعاملهم مع بعضهم البعض في مختلف مجالات الحياة .

نعم ، الحق هو الأساس ، وليس الشعور الشخصي النفسي ، ولا المصلحة الشخصية أو القبلية ، أو الحزبية ! .

وبديهي : أن الحق إذا جاء عن طريق الأخوة والحنان والعطف ، فإن ذلك يكون ضمانة لبقائه واستمراره والتعلق به ، والدفاع عنه .

أما إذا فرض هذا الحق فرضاً عن طريق القوة والسلطة ، فبمجرد أن تغيب السلطة ، والقوة ، فلنا أن

نتوقع غياب الحق ، لأن ضمانة بقائه ذهبت ، فأي مبرر يبقى لوجوده ، وبقائه ؟ ! .

بل ربما يكون وجوده وبقاؤه مثاراً للأحقاد والإحن التي ربما يتولد عنها الظلم والطغيان في أبشع صوره وأخزاها ، وأسوأ حالاته وأقصاها .

الثاني : المؤاساة : فهذه الأخوة إذاً ، ليست مجرد توهج عاطفة ، أو شعور نفسي ، وإنما هي أخوة مسؤولة ومنتجة ، تترتب عليها آثار عملية بالفعل ، يحس الإنسان فعلاً بجدواها وبفعاليتها ، تماماً كالأخوة التي في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ .

حيث جعل مسؤولية الصلح بين المؤمنين متفرعة وناشئة عن الأخوة الإيمانية ، وإذا كانت أخوة خيرة ومنتجة ، فمن الطبيعي أن تبقى ، وأن تستمر ، ومن الطبيعي أيضاً أن يستمر الاحتفاظ بها ، والحفاظ عليها إلى أبعد مدى ممكن ، وقد كانت لهذه المؤاخاة نتائج هامة في تاريخ النضال والجهاد .

****

س / ما هي وثيقة المدينة ؟ عدد ما لا يقل عن عشرة من بنودها ثم وضح أهميتها بشكل مفصل ؟

وثيقة المدينة :

أسس العلاقات في المجتمع الجديد :

يذكر المؤرخون : أنه بعد مدة وجيزة من قدومه « صلى الله عليه وآله » المدينة ، وعلى رأي البعض : بعد خمسة أشهر كتب « صلى الله عليه وآله » كتاباً أو وثيقة بينه وبين اليهود ، أقرهم فيها على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم : أن لا يعينوا عليه أحداً ، وإن دهم أمر فعليهم النصر ، كما أن على المسلمين ذلك في المقابل .

ولكن سرعان ما نقض اليهود العهد ، وعادوا إلى المكر والغدر ، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله .

ويلاحظ : أن الوثيقة المشار إليها لم تقتصر على تنظيم علاقات المسلمين مع غيرهم ، وإنما تعرض جانب كبير – بل هو الجانب الأكبر – منها إلى تقرير قواعد كلية ، وأسس عملية للعلاقات بين المسلمين أنفسهم ، كان لا بد منها لتلافي الأخطاء المحتملة قبل أن تقع .

فهذه الوثيقة بمثابة دستور عمل ، يتضمن أسس العلاقات في الدولة الناشئة ، سواء في الداخل أم في الخارج .

وهذه الوثيقة عبارة عن عقد ينظم العلاقة فيما بين المهاجرين والأنصار من جهة ، وبينهم وبين اليهود من

جهة أخرى .

وهذه الوثيقة هي بحق من أهم الوثائق القانونية ، التي لا بد أن يدرسها علماء القانون والتشريع بدقة متناهية ، لاستخلاص الدلائل والأحكام منها ، وأيضاً لمعرفة الغايات التي يرمي إليها الإسلام ، والضوابط التي يرتضيها ، ومقارنتها بغيرها مما يتهالك المستضعفون – فكرياً – من هذه الأمة عليه ، من القوانين القاصرة عن تلبية الحاجات الفطرية وغيرها للإنسان .

نص الوثيقة :

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله « صلى الله عليه وآله » كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي « صلى الله عليه وآله » بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ؛ فلحق بهم ، وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ... ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ... وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ...وإن من تبعنا من اليهود ؛ فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ، ولا متناصرين عليهم ... وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ...وإنكم مهما اختلفتم في شيء ؛ فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد « صلى الله عليه وآله » .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ... وإن الجار كالنفس ، غير مضارٍ ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ...وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد « صلى الله عليه وآله » ، وإن الله على أتقى ما في هذا الصحيفة وأبره ...وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله « صلى الله عليه وآله » (تمت الوثيقة) » .

أهمية الوثيقة :

١ – إنها قد قررت : أن المسلمين أمة واحدة ، رغم اختلاف قبائلهم وانتماءاتهم ، وتفاوت مستوياتهم وحجم ونوع طموحاتهم ، ورغم اختلاف حالاتهم المعيشية ، والاجتماعية ، وغير ذلك .

ولهذا القرار أبعاده السياسية ، وله آثاره الحقوقية ، وغيرها ، ثم له آثار وانعكاسات على التكوين السياسي

، والاجتماعي ، وعلى الحالة النفسية ، والعاطفية ، والفكرية ، والمعيشية ، والحياتية بصورة عامة .

٢ – لقد قررت الوثيقة أيضاً : أن من كان عليه دين ، ولم يكن له عشيرة تعينه في فداء أسيره ، فعلى المسلمين إعانته في فداء ذلك الأسير .

٣ – وجاء في الوثيقة أيضاً : أن مسؤولية دفع الظلم تقع على عاتق الجميع ، ولا تختص بمن وقع عليه الظلم .

٤ – وجاء فيها أيضاً قرار بإلغاء القبلية التي توجب على القبيلة الانتصار لأبنائها ، حتى ولو كانوا المعتدين على غيرهم ، والظالمين لهم ، حيث تقرر أن على جميع المؤمنين أن يلاحقوا القاتل ، من كان ، ومهما كان .

٥ – إظهار المسلمين أمام أعدائهم على أنهم قوة واحدة ومتماسكة ومتناصرة ، له أثر كبير في تكريس الهيبة لهم في النفوس ، وإبعاد الأطماع في أن ينفذ نافذ إلى المسلمين من خلال التلاعب بالعواطف القبلية أو سواها .

٦– أن الوثيقة لم تعط للمشركين حقوقاً ، ولكنها فرضت عليهم قيوداً ، فليس للمشرك أن يجير مالاً لقريش ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .

****

تغيرت ظروف المسلمين بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، إذ ازداد عددهم وأصبحت لهم القوة التي تمكنهم من مواجهة المشركين عن طريق الحرب بالسلاح التي منعوا منها وقت وجودهم في مكة، ولمّا حان وقت المواجهة جاء الأمر الإلهي بالسماح لهم في الدفاع عن أنفسهم.

نتج عن هذا الدفاع وكما ذكرت كتب السير والتاريخ ستاً أو سبعاً وعشرين غزوة وسبعاً وأربعين سرية.

-تشريع الجهاد والإذن بمقاتلة الأعداء:

لم يكن الجهاد مأذوناً به في بداية البعثة وقبل الهجرة إلى المدينة المنورة، بل أمر الله عز وجل رسوله (ο) في البدء بالدعوة الإسلامية، وأن يحرص على المصابرة في تبليغ أوامره، وألّا يلتفت إلى أذى المشركين، فقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾.

ثم أذن الله تعالى بعد الهجرة لرسوله (ο) بالجهاد، وذلك لمّا قويت شوكة الإسلام وكثر المسلمون، وقد أشار القرآن الكريم لهذا الأمر في العديد من الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، و ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ،وفي الآية: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، و ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ، وهذه أول آية نزلت في أمر القتال.

ولم يستهدف الإسلام من تشريع الجهاد ما تستهدفه الحروب في الجاهلية من تحصيل غنائم، أو أموال، أو تخريب، أو قتل وسبي وغيرها، بل يستهدف إقامة الدين وحفظه واستمراره وبقاء الأمة الإسلامية، وصيانة كيانها من السقوط والانهيار، ونشر العدل، وبسط الحق، وتطهير الأرض من الظلم والفساد.

وهذا ما نلاحظه في تعريف الجهاد بالمعنى الفقهي: هو بذل النفس، وما يتوقف عليه من المال في محاربة المشركين أو الباغين على وجه مخصوص، أو بذل النفس والمال في إعلاء كلمة الإسلام وإقامة شعائر الإيمان.

وعلى هذا الأساس كانت أغلب الحروب والغزوات التي قام بها رسول الله (o) ووقعت في حياته، هي حروب دفاعية، فإن غزوات بدر، وأُحد، والأحزاب إلى آخر الغزوات والسرايا التي بعثها (o) كانت لأجل إطفاء نيران الفتن، وإحباط المؤامرات التي كان يشعلها ويحيكها أعداء الإسلام، لاستئصال جذوره، وهدم بنيانه.

-الخوف من قتال المشركين:

لم يخلُ الأمر من وجود بعض الممتنعين عن تأدية هذا الفرض، فقد روي أنّ جماعة من الصحابة ومنهم عبد الرحمن بن عوف، استأذنوا رسول الله (o) في قتال المشركين بمكة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة، فلم يأذن لهم النبي (o)، وكان يقول لهم: " كفوا أيديكم فإني لم أؤمر بقتالهم ".

فلمّا هاجروا إلى المدينة وأذن الله تعالى لهم بالقتال امتنع بعضهم عن الجهاد خوفاً من المشركين، فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

غزوة بدر الكبرى (٢هـ/ ٦٢٣م):

بلّغ رسول الله (o) خروج قريش لحماية تجارة لهم قادمة للشام بقيادة أبي سفيان، فيها أموالهم، فندب النبي (o) المسلمين إلى الخروج إليها، وقال: " لعل الله أن ينفلكموها "، وفي ذلك شاور أصحابه، فقال المقداد: " امضِ لما أمرّك الله به فوالله لو خضت بالجمر لتبعناك "، وقال سعد بن معاذ[1]: " إنا آمنا بك وصدقناك،

---

(1) سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس الأوسي الأنصاري، كان سيد الأوس في وقته، يكنى أبا عمر، أسلم على يد مصعب بن عمير لما بعثه النبي (o) إلى المدينة في بيعة العقبة، وشهد سعد غزوة الخندق وجرح بها بسهم كان سبب وفاته. للمزيد ينظر: ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٤٢٠-٤١٧؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٢، ص٦٠٢-٦٠٥.

وشهدنا أنّ ما جئت به حق، وأعطيناك في ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت "، فسرّ النبي (o) بأقوالهم، ثم قال: " سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين "، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾.

ولمّا دنى أبو سفيان من الحجاز، أرسل من يتعرف له الأخبار تخوفاً على أموال قريش، فبلغه أنّ النبي محمداً (o) قد خرج قاصداً القافلة، فأرسل أبو سفيان، ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة، وأمره أن يستنفر قريش لحماية أموالهم، ففعل ضمضم ما أمره به، فتجهزت قريش لذلك.

ولكن أبا سفيان غير مسار القافلة، وظنّ إنه نجا بالتجارة، فأرسل إلى قريش: " إن ارجعوا، فقد سلمت عيركم "، وذلك عند الجحفة، فقال أبو جهل: " والله لا نرجع حتى نرد بدراً، وننحر جزراً، ونشرب خمراً، وتعزف علينا القيّان، ويرانا من غشينا من أهل الحجاز".

أمّا رسول الله (o) فقد خرج من المدينة، وجعل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس بالمدينة، وكان صاحب راية النبي (o) الإمام علي (عليه السلام)، والراية الثانية وهي راية الأنصار مع سعد بن عبادة.

اجتمع الطرفان عند آبار بدر وهناك أشار الحباب بن المنذر على رسول الله (o) أن يغير مكان نزولهم فيجعل الآبار خلفهم، فقبل النبي (o) رأيه هذا، إلّا أنّ بعض الصحابة قد تنازعوا بينهم، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

كانت الحرب يوم الجمعة السابع من شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة، وعند المواجهة بين الطرفين، بارز حمزة بن عبد المطلب عتبة بن ربيعة فقتله، والإمام علي بن أبي طالب قتل الوليد بن عتبة[٢]، وعبيدة بن الحارث[٣] قتل شيبة

---

(٢) الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي، ثم هند بنت عتبة، كان من الفرسان في الجاهلية. للمزيد ينظر: ابن سعد، الطبقات، ج ص٤٨؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٤، ص١٩٠١؛ ابن حجر، الإصابة، ج٨، ص٢٧٧

بن ربيعة[٤]، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾.

ولمّا اشتد القتال بين الطرفين، أخذ رسول الله (ص) كفاً من الحصباء فرماها في وجوه المشركين، وقال: شاهت الوجوه، فقسمها الله تعالى على أعينهم فانشغل المشركون بأنفسهم حتى حقق المسلمون النصر، وفي ذلك قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أمّا عدد المشاركين في الغزوة من الطرفين، فكان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً منهم مائتان وثلاثون رجلاً من الأنصار، أمّا المشركون فكان عددهم بين التسعمائة إلى الألف.

ولمّا رأى المسلمون قلة عددهم أمام المشركين استغاثوا بالله والتجأوا اليه، فأمدهم الله تعالى بالملائكة يقاتلون معهم، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، وقيل في صفة الملائكة التي نزلت يوم بدر أنّها نزلت على خيل بلق، وعليهم عمائم صفر.

وفضلاً عمّا منّ به الله تعالى على المسلمين من الإمداد بالملائكة أنّه قلل عدد المشركين بأعينهم، فجعلهم يتخيلوهم قليلي العدد، فروي عن ابن مسعود أنّه

---

(٣) عبيدة بن الحارث بن المطلب، يكنى أبا الحارث، من صحابة رسول الله (ص) ومن أصحاب المنزلة لديه، هاجر إلى المدينة، وكان على رأس أول سرية في الإسلام، شهد معركة بدر واستشهد فيها متأثراً بجراحه. للمزيد ينظر: ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٣، ص١٠٢٠-١٠٢١؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج٣، ص٣٥٦-٣٥٧؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١، ص٢٥٦.

(٤) شيبة بن ربيعة العبشمي القرشي، شقيق عتبة بن ربيعة، وله عقب بمكة يعرفون ببني أبي يسار، منهم: يزيد بن عبد الله بن شيبة، وله ابنة تزوجها محمد بن مروان بن الحكم. للمزيد ينظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٧٧.

قال: رأيناهم قليلاً حتى قلت لمن كان إلى جانبي: أتراهم سبعين رجلاً؟ فقال لي: هم نحو المائة، فلما أسرنا رجلاً منهم سألناه كم كانوا؟ فقال: ألفاً، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

ومع قلّة عدد المؤمنين، منَّ الله تعالى عليهم بالنصر والظفر بالمشركين مع قوتهم وكثرة عددهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وسمى الله تعالى يوم بدر بيوم الفرقان، فقال عز وجل: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾.

وكان النبي محمد (ص) إذا شهد قتالاً قال: " ربَّ احكم بالحق بيني وبين المشركين بما يظهر به الحق للجميع "، وروي: " ما غلب نبيٌّ في حرب ولا قُتل فيها قط ".

استشهد من المسلمين في هذه الغزوة أربعة عشر رجلاً، وقُتل من المشركين سبعين وأسروا سبعين.

- غزوة أُحد (٣هـ/ ٦٢٤م):

بسبب ما أصاب أهل مكة في غزوة بدر من هزيمتهم وقتل صناديدهم وشبانهم، وأسر آخرين، كانت مكة تحترق غيضاً على المسلمين مما أصابهم، حتى أنّ قريشاً منعوا البكاء على قتلاهم في بدر.

ومن أجل الأخذ بثأر قتلاهم توجهت جماعة منهم إلى أبي سفيان وكلفوه بشأن حرب المسلمين فأعانهم بمال تجارة الشام هو وكل من كان له اموال في تلك التجارة، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

فضلاً عن ذلك، توجهت قريش إلى قبائل كنانة وأهل تهامة، واستأجر أبو سفيان ألفين من الأحابيش[٥] لهذه الحرب، وهكذا خرجت قريش لهذه الحرب بحدّها وجدها وحديدها وأحابيشها ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة، وأخرجوا معهم بعض النساء منهن: هند بنت عتبة[٦]، حتى لا يفر الرجال من المعركة وليذكرنهم بقتلى بدر، فبلّغ عدد المشركين ثلاثة آلاف مقاتل وقيل خمسة آلاف، مجهزين بالخيل والسلاح.

وصل خبر مسير قريش إلى رسول الله (o) والمدينة قيل عن طريقين: الأول، أنّ العباس بن عبد المطلب هو من كتب إلى النبي (o) يخبره بالأمر مع رجل من بني غفار، فلما وصل الكتاب إلى النبي (o) أمر بكتمان الخبر، والثاني، أنّ مجموعة من بني خزاعة قدموا من مكة إلى المدينة فأخبروا رسول الله (o) الخبر، فأرسل (o) الحباب بن المنذر سراً لمعرفة عددهم وعدتهم.

كان رأي رسول الله (o) لمواجهة قريش هو البقاء داخل المدينة فيقصدوهم أهل مكة، فاختلف أصحابه في ذلك وأصروا على الخروج لحرب قريش فكانت نتيجة ذلك أن قُتل منهم سبعون رجلاً، وفي ذلك قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وكانت حجتهم في القتال خارج المدينة، إن بقاءهم بها سيجعل عدوهم يظن بهم الجبن، فنزل رسول الله (o) على رأيهم، ولبس لامة الحرب، إلّا أنّ ندموا على

---

(٥) من التحبش، وهو التجمع، جماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة، وهم بنو الهون بن خزيمة وبنو الحارث بن عبد مناف بن كنانة وبنو المصطلق بن خزيمة، وقيل أنّهم حالفوا قريش تحت جبل يسمى حبشياً فسموا بالأحابيش. للمزيد ينظر: الجوهري، الصحاح، ج٣، ص٩٩٩؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ج٢، ص٦٩٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص٦٨.

(٦) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، زوجة أبي سفيان بن صخر، من نساء قريش اللواتي كان لهن رأي وعزة، شهدت غزوة أحد مع المشركين، وكانت تحرضهم على قتل المسلمين، وصفها النبي (o) بآكلة الأكباد، أسلمت في فتح مكة، توفيت سنة (١٤هـ/٦٣٥م). للمزيد ينظر: ابن سعد، الطبقات، ج٨، ص٢٣٥-٢٣٧؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٤، ص١٩٢٢-١٩٢٣.

مخالفة رأي النبي (o) وتراجعوا في رأيهم، فقالوا: " يا رسول الله امكث كما أمرتنا، فقال (o): ما ينبغي لنبي أخذ لامة الحرب أنْ يرجع حتى يقاتل ".

وتجهز المسلمون للقتال، واستخلف النبي محمد (o) ابن أم مكتوم على المدينة، وعقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لأمير المؤمنين (عليه السلام)، ولواء الأنصار مع حباب بن المنذر وقيل سعد بن عبادة، ثم خرج (o) من المدينة ومعه ما يقارب ألف رجل، ألّا أنّ المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول كان لهم موقف آخر، إذ اعتزل بثلاثمائة رجل قال لهم " علامَ نقتل أنفسنا ارجعوا بنا " فرجعوا عن جيش المسلمين، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، وحاول عبد الله بن عمرو بن حزام[٧] أنْ يعيدهم إلى صفوف جيش المسلمين ويحذرهم أنْ يخذلوا نبيهم (o)، فردوا عليه: " لا يكون بينكم قتال ولو علمنا أنّه يكون قتال لخرجنا معكم "، قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

ثم حدث القتال بين الطرفين يوم السبت لسبع ليالٍ خلت من شهر شوال في السنة الثالثة للهجرة، كان النصر فيها للمسلمين وقُتل عدد من المشركين ومعهم أصحاب لواءهم واحداً تلو الآخر، وتفرقت صفوفهم، بعد أن انتكست رايتهم.

كان رسول الله (o) قد جعل على جبل أُحد مجموعة من رماة المسلمين وأمرهم بملازمة مكانهم خوفاً من خروج كمين عليهم، إلّا انهم لما رأوا بقية المسلمين نزلوا لأخذ غنائم الحرب من معسكر المشركين، قالوا: يغنمون ولا نغنم، فقال لهم رئيسهم: الله الله لا تفعلوا فإن النبي (o) أمرنا ألّا نبرح، فلم يسمعوا قوله ونزلوا لجمع

---

(٧) عبد الله بن عمرو بن حزام بن كعب الخزرجي، من أشراف الخزرج وساداتهم، شهد بيعة العقبة الثانية، ومن الغزوات شهد بدر واستشهد بأُحد، إذ كان أول من قتل فيها. للمزيد ينظر: ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٥٦١-٥٦٣؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج٣، ص٢٣١-٢٣٣.

الغنائم، فبقي رئيسهم مع اثني عشر رجلاً، فخرج عليهم خالد بن الوليد[٨] مع مائتي فارس فقتلوهم، إذ كان كامناً في شعب الجبل، فهرب بقية المسلمين من قتالهم وتفرقت صفوفهم حتى وصل العدو إلى رسول الله (o) الذي لم يبقَ معه غير ثلاثة عشر رجلاً، منهم: الإمام علي (عليه السلام) وطلحة[٩]، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وهرب الباقون إلى الجبل، وكان (o) يدعوهم: " ارجعوا إليّ عباد الله ارجعوا "، وبسبب إخلال الرماة بمراكزهم تمكن المشركون من قتل سبعين من المسلمين، وكسروا رباعية النبي (o)، وشج رأسه الشريف وجرت الدماء على وجهه، فقال (o): " كيف يفلح قوم نالوا هذا من نبيهم وهو مع ذلك حريص على دعائهم إلى ربهم "، وكان الذي كسر ربعايته وشجه في وجهه، هو عتبة بن أبي وقاص، دعا عليه النبي (o) ألّا يحول عليه الحول حتى يموت كافراً، فمات قبل حول الحول، كذلك أشيع أنّه (o) قُتل.

وبعد إشاعة مقتل رسول الله (o) بشّر كعب بن مالك المسلمين بأن النبي (o) على قيد الحياة، وحرص (o) أن يرجع بهم إلى مراكزهم، فعادوا للقتال وأبلوا على قلة عددهم بلاءً حسناً، عند ذلك أُجبر المشركون على الانسحاب وإنهاء الحرب، فأعلن أبو سفيان انتهاء المعركة.

---

(٨) خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي، كنيته أبو سليمان، وقيل أبو الوليد، من أشراف قريش في الجاهلية، أسلم قبل فتح مكة، وشارك بغزوات عدة إلى جانب المسلمين منها معركة مؤتة، أرسله النبي (o) إلى مدن عدة يدعوهم إلى الإسلام، وقاد جيش المسلمين في حروب الردة ومدعي النبوة، وشارك في فتوح الشام وغيرها، توفي بالشام سنة (٢١هـ/٦٤١م). للمزيد ينظر: ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٢، ص٤٢٧-٤٣٠؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج٢، ص٩٣-٩٦.

(٩) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب القرشي التيمي، صحابي من أوائل المسلمين، هاجر إلى المدينة، لم يشهد غزوة بدر، وشهد ما بعدها، وبعد وفاة رسول الله (o) شارك في الفتوحات الإسلامية توفي سنة (٣٦هـ/ ٦٥٦م). للمزيد ينظر: ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص٧٦٤-٧٧٠.

موقف النبي(صلي الله عليه و آله و سلم) من اليهود

ابتدأت المواجهة بين النبي(صلي الله عليه و آله و سلم) واليهود بعدما هاجر النبي إلى المدينة، حيث تعامل الرسول (صلي الله عليه و آله و سلم) مع اليهود في البداية على أساس أنهم أهل كتاب موحدين يؤمنون بنبوة موسى(عليه السلام) ويرفضون الأوثان . فدعاهم إلى الإسلام بكل سماحة، وإلى الإيمان بنبوته وبدينه كدعوة عالمية، وإلى التقوى في العمل وهي ميزان التفاضل، وإلى تحليل الطيب وتحريم الخبيث في التشريع، وإلى التعاون والمعروف في بناء المجتمع، قال تعالى :{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (سورة الأعراف: ١٥٧). وقد أسلم جماعة من أحبارهم ووجهائهم وصدقوا في إسلامهم أمثال: عبد الله بن سلام، ومخيريق من بني ثعلبة. زد على ذلك أن النبي (صلي الله عليه و آله و سلم) كان يضع في أولوياته القضاء على العدو الأول والأكبر وهم كفار قريش ومشركيها، ولم يكن يطمح أبداً لفتح جبهة أخرى مع اليهود، لكونهم أهل كتاب يدعون إلى التوحيد ظاهرا

اسباب الصراع بين المسلمين واليهود في جزيرة العرب

١- إن ممارسات اليهود التخريبية جعلت خطرهم يتفاقم على الإسلام والمسلمين، حيث حاولوا زعزعة إيمان المسلمين بدينهم،

٢-وإظهار الرسول(صلي الله عليه و آله و سلم) بموقف الضعيف،

٣- كما عملوا على تأجيج نار الجاهلية بين الأوس والخزرج من جديد بعد أن توحدوا ببركة الرسول(صلي الله عليه و آله و سلم) ونعمة الإسلام .

٤- إضافة إلى ذلك مضايقتهم لبعض القوافل التجارية الخاصة بالمسلمين ونهبها وتعرضهم للنساء المسلمات في الأسواق .

٥- محاولة قتل الرسول(صلي الله عليه و آله و سلم) واغتياله، ولكن الإرادة الإلهية شاءت حفظه وإكمال تبليغه للرسالة الإلهية الخاتمة.

٦-وأخيراً وليس آخراً نقضهم لعهد الرسول(صلي الله عليه و آله و سلم) وصحيفة المدينة، وتحالفهم مع كفار قريش ومشركيها لاجتياح المدينة في معركة الأحزاب واستئصال الإسلام والمسلمين.

ولكن جميع محاولات اليهود للقضاء على الإسلام والمسلمين باءت بالفشل الذريع بسبب وعي القيادة الإسلامية العليا.

ومن قبائل اليهود في المدينة المنورة:

١-بنو قينقاع: من قبائل اليهود التي كانت تسكن المدينة المنورة إبان الهجرة النبوية، والتي عقد رسول الله(ص) عهداً بينهم وبين المسلمين، الا أن بني قينقاع نكثوا عهدهم فحكم النبي(ص) بعد غزوة بني قينقاع بأن يخرجوا من المدينة.

٢-بنو النضير: من قبائل اليهود التي سكنت يثرب(المدينة المنورة) قبل ظهور الإسلام، وبعد هجرة النبي محمد(ص) إلى المدينة عقد معهم معاهدة على أن يبقوا على دينهم وأن يُساندوا المسلمين إذا هاجمهم العدو، لكنهم نقضوا المعاهدة بتآمرهم على قتل رسول الله(ص)، وبسبب ذلك وقعت غزوة بنو النضير سنة ٤هـ التي أُخرجوا على إثرها من المدينة.

٣-بنو قريظة: قبيلة يهودية كانت تقطن يثرب في أوائل الهجرة النبوية، نقضت عهدها مع النبي(ص) وذلك بتعاونهم مع المشركين في غزوة الأحزاب(الخندق) سنة ٥هـ ضد المسلمين، فتوجه لهم المسلمين لقتالهم بعد الانتهاء من غزوة الأحزاب، وانتهى الحصار بعد خمسة عشر يوماً بعد أن اقترح يهود بني قريظة مصالحة المسلمين.

٤-يهود خيبر: معنى خيبر في لغة اليهود الحصن، وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع ونخل كثير، لم يكن بين يهود خيبر ورسول الله(ص) عهد، مثل بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، لكن النبي خرج اليهم ليدعوهم إلى الإسلام أو قبول الجزية أو الحرب، ولكنهم لم يقبلوا بالإسلام ولا دفع الجزية، بل كانوا يحرضون زعماء مكة على مهاجمة المسلمين؛ لذلك حدثت غزوة خيبر في السنة

السابعة للهجرة، وانتهت المعركة بعد حصار حصون خيبر لأكثر من عشرون ليلة، وبفتح أغلب الحصون على يد الإمام علي(ع)، ولكن لم يتم طرد اليهود من هذه المنطقة، بل وافقوا على دفع نصف محاصيلهم الزراعية للمسلمين مقابل بقاءهم في خيبر.

غزوة خيبر :

وعد الله عز وجل رسوله بدخول خيبر وهو بالحديبية ، عندما نزلت عليه سورة الفتح ، وبعد أن أمن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جانب قريش ، تفرغ لحرب يهود خيبر الذين جهزوا جيش الأحزاب ضده ، واستمروا في حربه منذ وصوله إلى المدينة ، وكانوا قد سكنوا خيبر ، وبنوا فيها سبع قلاع ، وثمانية حصون قوية ، وكانت التربة والمناخ في تلك المنطقة قد جعلت منها مكاناً صالحاً للزراعة ، وحصل سكانها على مهارة كبرى في أمور الزراعة ، وتهيئة وسائل الدفاع والقتال وإعداد السلاح ، وكانوا لا يظنون أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يغزوهم لمنعتهم ، وحصونهم ، وسلاحهم ، وعددهم.

التوجه لفتح خيبر :

توجه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى حرب اليهود في خيبر آخر مركز من مراكز اليهود في الجزيرة العربية في محرم سنة ٧ هـ ، وأمر أصحابه بالخروج فجدوا في ذلك ، واستنفروا من حوله ممن شهد الحديبية ، يغزون معه ، وانتشر الخبر بين الناس ، فجاء المخلفون من الأعراب ؛ ممن تخلف عن الذهاب معه إلى الحديبية ، للانضمام إليه في غزو خيبر رجاء الغنيمة ، ولمنعهم من ممارسة هذا العمل ، قرر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حرمانهم ، وتخصيص أهل الحديبية بالغنائم . حتى يشعر هؤلاء بالعزة والكرامة ، ويشعر المتخلفون بالخزي والذنب .

واستخلف على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي ، ودفع لواءه إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، وأمره بالتوجه إلى خيبر .

وأرسل عبد الله بن أبي بن سلول ، شيخ المنافقين في المدينة ، إلى اليهود يخبرهم بخروج المسلمين إليهم ، فلما علموا بذلك أرسلوا وفداً إلى غطفان يطلبون العون منهم .

التحرك العسكري لجيش المسلمين :

خرج مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى خيبر ما يقرب من ألف وستمئة مقاتل ، وسار الجيش الإسلامي في صدور الأودية ، حتى يتحاشى الظهور على قمم الجبال ، وعلى جوانبها التي تظهر لعيون خيبر ، وجاءهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بجيشه من جهة الشمال الشرقي ، فقطع الطريق بينهم وبين الشام ، وهي الجهة التي يمكن مباغتة خيبر منها ، وقطع الإمداد من جهة غطفان ؛ لأن اليهود كانوا يتوقعون الغزو من جهة الجنوب ، فكانت عيونهم ومراصدهم تكثف سهرها

هناك ، وأما جهة الشمال ، أي جهة الشام ، فقد كانت آمنة بنظرهم ، ولا تحتاج إلى الرصد والمراقبة .

وحاول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يثني غطفان عن الوقوف إلى جانب اليهود ، فأرسل إليهم أن لا يعينوهم على أن يعطيهم من خيبر شيئاً ، إلا أنهم جمعوا لهم أربعة آلاف مقاتل ، ثم خرجوا ليعاونوا اليهود عليه ، فسار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في طريق يصل إلى مساكن غطفان .

وعندما نزل الجيش الإسلامي بالرجيع (مورد ماء) ، ارتفعت الأصوات والصياح في مساكن غطفان فخافت هذه القبيلة وقضلت أولادها ونساءها على تمر خيبر ، وخلوا بين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين خيبر .

وكانت خيبر تنقسم إلى ثلاثة محاور : محور حصون النطاة ، ومحور حصون الشق ، ومحور حصن الكتيبة بما في كل حصن من بروج ، وكانت مشيدة بحيث يسيطر سكانها على خارج الحصن سيطرة كاملة ، عن طريق المجانيق ، وغيرها من آلات الرمي .

كان القرار النبوي أن يفتح المسلمون خيبر حصناً حصناً ، ولهذا فإن أول عمل قام به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه في هذا السبيل هو احتلال كل النقاط والطرق الهامة ليلاً ، وقطع أوصال خيبر ومنع اليهود من التواصل في ما بينهم ، وقد تم هذا العمل بسرعة ؛ لأن أخبار الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قد عميت عليهم ، والمستفاد من المصادر التاريخية هو أن المسلمين دخلوا القلاع والحصون حصنا تلو حصن ، وحاولوا قطع ارتباط الحصن المحاصر ببقية الحصون الأخرى ولقد تم فتح هذه الحصون ببطء ؛ لأنها كانت مرتبطة ببعضها بعضاً ارتباطا وثيقاً ، وكان آخر حصن القموص ، وقد حاصره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لاكثر من عشرين ليلة ، وخلال الحصار ، كان المسلمون قد أحرقوا الحصن ، وقد تصاعد منه الدخان الكثيف بسبب الأخشاب ، فأمر الإمام علي (عليه السلام) برمد في عينيه ، ولم يتمكن المسلمون أيضاً من مواصلة القتال ، وعجزوا عن مقاومة اليهود ، وخصوصا مرحب ، فالتجأوا إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وشكوا ذلك له ، وسألوه أن يخرج علياً (عليه السلام) لمرحب .

وقام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فوعظ الناس ، ثم دعا باللواء وقال : « لأبعثن رجلاً لا يرجع حتى الله أبداً يحب الله ورسوله » فاستشرف لها من استشرف ، فدعا رسول الله علياً (عليه السلام) ، فقال له «أين علي ؟ ! » ، فقالوا : « يشتكي عينيه » ، قال : « فأرسلوا إليه ! أرونيه ، تروني رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » ، فلما جاء (عليه السلام) قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله

« ما لك ؟ قال : « رمدت حتى لا أبصر ما أمامي » ، قال : « ادن مني » ، فوضع علي (ع) رأسه عند حجره ، وبزق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في آلية يده ، فدلك بها عيني علي (عليه السلام) ، فبرئ وعوفي من ساعته ، ثم ألبسه درعه الحديد ، وشد ذا الفقار في وسطه ، ثم أعطاه الراية ، فخرج علي (عليه السلام) وهو يهرول هرولة ، والمسلمون خلفه ، حتى ركزها تحت الحصن عند الباب ، فأطلع يهودي من رأس الحصن ، فقال : « من أنت ؟ » ، قال : « أنا علي بن أبي طالب » ، فقال اليهودي : « غلبتهم ، والذي أنزل التوراة على موسى » ، فتقدم إلى علي (عليه السلام) الحارث أبو زينب ، أخو مرحب ، في كتيبة من رجاله ، فقتله وفرقهم ، وغضب مرحب لمقتل أخيه ، وخرج سريعاً من الحصن ، فخرج إليه الإمام علي (عليه السلام) ، فجعلا يقتتلان ، ثم حمل عليه علي (عليه السلام) فبدره بضربة على هامته ، فلقت رأسه ، فانهزم اليهود بين يديه ، يقولون : قُتل مرحب ، ولجأوا إلى الحصن ، وكان هناك خندق ، لم يستطع المسلمون عبوره ، وكان باب الحصن حجراً منقوراً في صخر ، فتقدم الإمام علي (عليه السلام) الى الباب واقتلعه وجعلهُ قنطرة على الخندق حتى دخل المسلمون الحصن ، وبعث الإمام علي (عليه السلام) رجلاً يبشر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالنصر على اليهود .

****

المذكورة ، والله العالم .

****

صلح الحديبية : سنة ٦هـ (٦٢٨م)

في السنة السادسة للهجرة ، شرع خاتم النبيين (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في تنفيذ خطته الإستراتيجية لإحداث انقلاب في موازين القوى استعداداً لشن الهجوم العام على القاعدة الأساس للشرك في الجزيرة العربية وعاصمة الوثنية في مكة ، وهذه هي الخطوة الخامسة في خطته .

وكانت مراحل هذه الخطة هي : تجميد قريش أولاً ، وقلب موازين القوى لمصلحة الإسلام ثانياً ، ثم شن الهجوم العام على الشرك ثالثاً واستئصاله نهائياً من جزيرة العرب رابعاً .

وكان من أهم الوسائل المساعدة على ذلك إحراج قريش بقضية أداء مناسك الحج فقريش لا يمكن لها أن تمنع أحداً من ممارسة مناسك الحج ، فهي المدافعة عن ذلك ، وهي التي ترعى شؤون الحجيج في كل سنة ، وبهذه الوسيلة يمكن لرسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أن يحرج قريشاً ؛ فإما أن تسمح له مباشرةً بدخول الكعبة حاجاً ، وإما أن تضطر للتفاوض معه خوفاً من وقوع الحرب بين الطرفين ، وبهذه الخطوة ، استطاع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أن يجر قريشاً إلى الصلح وإعلان الهدنة بين الطرفين .

رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الرؤيا أنه دخل البيت الحرام وحلق رأسه ووقف في عرفات ، وقد صدّق الله تعالى رؤيا نبيه بقوله : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ ، فخرج (صلّى الله عليه وآله وسلّم) من المدينة يوم الاثنين في شهر ذي القعدة ، وكان المسلمون ألفاً وأربعمئة ، أعلن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أنه سيذهب إلى مكة معتمراً لا غازياً ولا محارباً ، وترك عيون قريش وجواسيسها ينقلون إليها نيته المعلنة .

وأعطى النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لواءه لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وخرج معه المسلمون ، وساق الهدي معه ، حتى وصلوا إلى ذي الحليفة (وهو ميقات أهل المدينة الذي يحرمون منه لأداء مناسك الحج) ، وإنما ساق معه الهدي ، وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً للبيت ومعظماً له ، فيأمن الناس من حربه .

وكان في طريقه يستنفر العرب ، ومن حوله من أهل البوادي ومن الأعراب في ما بين المدينة إلى مكة ، ودعا رسول الله (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) بشر بن سفيان الكعبي ليستطلع له خبر قريش .

اعترضت قريش وزعمائها ورفضت قبول هذا الامر ، ولكن الاحداث المتسارعة أجبرتهم على الإنصات والاستماع للرسول (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) والتخلي عن موقفهم المتشدد بقتال المسلمين المتوجهين لأداء العمرة ، ورأوا ان من الخير لهم ان يصالحوا الرسول (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) ، وبعثوا سهيل بن عمرو وآخرين لعقد الاتفاق .

كتابة معاهدة الصلح :

دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الإمام علي (عليه السلام) ، فقال له رسول الله : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : أما الرحمن فوا لله ما أدري ما هو : ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال المسلمون والله لا نكتب الا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : اكتب باسمك اللهم ، هذا ما قاضي عليه رسول الله ، فقال سهيل : لو كنا نعلم أنك لرسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله ، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : إني لرسول الله ، وإن كذبتموني ، ثم قال لعلي (عليه السلام) امح رسول الله ، فقال : يا رسول الله إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة ، فأخذه رسول الله فمحاه ، ثم قال أكتب : (هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ، سهيل بن عمرو ...) .

بنود الصلح :

١. وضع الحرب بينهم عشر سنين .

٢. إن محمداً يرجع عنهم عامه هذا وأصحابه فلا يدخل عليهم مكة ، فإذا كان العام القادم خرجوا عنها فدخلها بأصحابه ؛ فيقيم فيها ثلاثة أيام من دون سلاح ، وأن ترفع الأصنام .

٣. من أتى محمداً من قريش من دون إذن وليه وإن كان على دينه رده إليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه .

٤. لا يستكره أحد على ترك دينه ، وأن يكون الإسلام ظاهراً في مكة ، وأن لا يؤذى أحد ولا يُعير .

٥. من أحب من المشركين أن يدخل في عهد محمد كان له ذلك ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه .

نتائج صلح الحديبية :

١. لقد فتح هذا الصلح الباب على مصراعيه لنشر الدعوة الإسلامية بين العرب وغيرهم ، بالإضافة سماحه بعقد التحالفات والاتفاقيات مع أي جهة كانت ، وروي عن أهل البيت (عليهم السلام) : « انقضت تلك المدة (وهي سنتا الهدنة) حتى كاد الإسلام يستولي على أهل مكة » .

٢. إن تحديد مدة الصلح بعشر سنين غير ملزم مطلقاً ، فلو أن قريشا أخلت بالاتفاق ، فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سوف يكون بحل منه ، ويحق له التصرف بما يريد .

٣. لم يكن رجوع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا العام على أن يعود العام المقبل بنداً لأن العمرة سبب للمصالحة وطريق إليها ، وهي اعتراف من قريش بأحقية المسلمين بممارسة الدينية كغيرهم من العرب .

٤. إن حرية الرجوع إلى دين قريش فيه مصلحة الإسلام ، فهو يفتح المجال لرجوع المنافقين المقابل بقاء المسلمين في مكة يعني بداية ظهور الإسلام فيها تمهيداً لفتحها .

٥ . إن وضع الحرب سوف يتيح للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الفرصة لتصفية الوجود الي الجزيرة .

٦ . أعطى الصلح فرصة لانضمام خزاعة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وهذا يشكل لقريش .

****

غزوة مؤتة :

عندما هاجر النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) إلى المدينة المنورة أسس دولة الإسلام المباركة ، ولعلها الدولة الوحيدة الموجودة في الجزيرة العربية آنذاك من حيث القيادة والتنظيم، وفي الوقت عينه كانت المنطقة المجاورة لها تعيش صراعاً كبيراً للسيطرة عليها من قبل دولتين عظمتين ، وهما: دولتا الروم وفارس، وكانت بينهما عدة من الوقائع ، وحدث أن انتصر الروم على دولة فارس في بلاد الشام ، وعلى إثر ذلك تزايدت رغبة الروم في غزو مدينة النبي (صلى الله عليه وآله) وإيقاف المد الإسلامي والحد من انتشاره في المنطقة وخارجها ، وهذا واضح من خلال قتلهم لرُسل النبي (صلى الله عليه وآله) ، وقد نشبت بين المسلمين وبين الروم عدة من المعارك منها : غزوة دومة الجندل سنة ٥ هـ التي انتهت بانتصار المسلمين ، وتقع دومة الجندل على خمس ليال من دمشق ، وهي من أعمال الشام ، وكذا المعركة التي قادتها سرية من المسلمين قصدت منطقة (ذات اطلاح) وهي في البلقاء من الأردن .

ولم يكن هذا الأمر خافياً على النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) ، لذا كان(صلى الله عليه وآله)

٥٢٥٢٨

يراقب تحركات دولة الروم، وعلى إثر ذلك قام (صلى الله عليه وآله) بخطوة عظيمة يوصل من خلالها رسالة مهمة إلى دولة الروم بأنه على استعداد للمواجه ويمتلك جيشاً قادراً على تحمل الصعاب وتحدي جيش الروم وقتالهم على أبواب القدس، تمثلت هذه الرسالة بإرساله جيشاً مكوناً من ٣ آلاف شخص يقطع تلك المسافات الطويلة، ويغزو الروم في عقر دارهم ، ولما كانت هذه الغزوة تمثل إثبات القوة النوعية للمسلمين ، لذا فقد اختار(صلى الله عليه وآله) الصحابي جعفر بن أبي طالب (عليه السلام) الطيار ذا الجناحين قائدا لهذه الغزوة ، وهو ممن عُرف بالشجاعة والبسالة وممن تربّع بجدارة واستحقاق على عرش البطولة والشهامة ، فهو من بيت عُرف بالولاء والمحبة ونصرة الدين ، وهو ممن له الخبرة والدراية في التعامل مع الروم ، قد اكتسبها عندما أرسله النبي(صلى الله عليه وآله) ممثلاً له في الحبشة وقائداً للمهاجرين آنذاك ، فقد مارس دوراً مهما آنذاك في استقرار مُلك مَلك الحبشة في صراعه مع الروم.

سبب الغزوة :

في جمادي الأولى سنة ٨ هـ بعد خيبر بشهرين (وحقها أن تسمى سرية كما في طبقات ابن سعد لأن الغزوة عندهم ما غزاها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه والسرية بخلافها) ، ومؤتة موضع معروف عند الكرك بأدنى البلقاء (جنوب عَمان عاصمة الأردن حالياً) وكان سببها ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى هرقل ملك الروم بالشام فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني من امراء قيصر على الشام فقال أين تريد لعلك من رسل محمد قال نعم ، فأوثقه رباطا ثم قدمه فضرب عنقه ولم يقتل لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رسول غيره فلما بلغه ذلك اشتد الأمر عليه فجهز ثلاثة آلاف من أصحابه وبعثهم إلى بلاد الروم وأمر عليهم جعفر بن أبي طالب فان أصيب فزيد بن حارثة فإن أصيب فعبد الله بن رواحة ، وأمرهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يدعوهم إلى الاسلام فان أجابوا وإلا استعانوا الله عليهم وودعهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأوصاهم بتقوى الله وقال : " اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا كبيراً فانياً ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناءً " ، فلما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم وقام فيهم شرحبيل بن … فجمع أكثر من مائة ألف وقدم الطلائع أمامه فساروا حتى نزلوا (معان) من أرض الشام ، فبلغهم … هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ومائة ألف من العرب المتنصرة من بكر … وجذام وغيرهم فاقاموا بمعان ليلتين ينظرون في أمرهم هل يبعثون لرسول الله (ص) ويخبرونه بعدد … ، فاما أن يمدهم أو يأمرهم بأمر فيمضوا له فشجعهم عبد الله بن رواحة … تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة …

الذي أكرمنا الله تعالى به فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة ، فقال الناس صدق والله ابن رواحة فمضوا للقتال ، فلما كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة وعبأوا جيشهم ميمنة وميسرة والتقى الناس فاقتتلوا فقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم قاتل جعفر بن ابي طالب براية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقاتل المسلمون معه على صفوفهم حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ، وكان أول من عقر فرسه في الاسلام ، ثم قاتل فقُطعت يمينه فاخذ الراية بيساره فقطعت يساره فاحتضن الراية وقاتل حتى قُتل ، وقال رسول الله (ص) إن الله أبدله بهما جناحين يطير بهما في الجنة مع الملائكة فروي انه وجد ما بين صدره ومنكبيه تسعون جراحة ما بين ضربة وطعنة وقيل وجد في بدنه اثنتان وسبعون ضربة وطعنة ، وقيل ضربه رومي فقطعه بنصفين ، ثم أخذ الراية زيد بن حارثة حتى شاط في رماح القوم أي قُتل طعناً بالرماح ، فاخذ الراية عبد الله بن رواحة ثم تقدم بها فقاتل حتى قُتل ، ثم أخذ الراية خالد بن الوليد فانحاز بالناس ورجع فلقيهم المسلمون يحثون في وجوههم التراب ويقولون : " يا فرارون فررتم في سبيل الله ، وكان الرجل يجئ إلى أهل بيته يدق عليهم الباب فيأبون أن يفتحوا له حتى أن نفراً منهم جلسوا في بيوتهم استحياءً كلما خرج واحد منهم صاحوا به ، وهنا تدخل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من اجل رفع معنويات المنهزمين ، فكان يُعلق على كلام الناس قائلاً : " بل هم الكرارون " ، وشجعهم على الخروج من منازلهم .

وعن كتاب المحاسن أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما انتهى إليه قتل جعفر بن أبي طالب دخل على أسماء بنت عميس زوجة جعفر فقال لها : " أين بني فدعت بهم وهم ثلاثة عبد الله وعون ومحمد فمسح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رؤوسهم فقالت انك تمسح رؤوسهم كأنهم أيتام فعجب من عقلها فقال يا أسماء أ لم تعلمي أن جعفراً استشهد فبكت فقال لها لا تبكي فان الله اخبرني أن له جناحين في الجنة من ياقوت أحمر ، فقالت يا رسول الله لو جمعت الناس وأخبرتهم بفضل جعفر لا ينسى فضله ، فعُجب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من عقلها ثم قال : " ابعثوا إلى أهل جعفر طعاماً فجرت به السُنة ، ودخلت فاطمة الزهراء (عليه السلام) وهي تبكي وتقول : وا عماه ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : "على مثل جعفر فلتبك البواكي " .

وعلى الرغم من هزيمة جيش المسلمين في هذه المعركة الا انها مكنتهم من الوصول الى عُقر الدولة البيزنطية ، وقد ازداد إقبال الناس على الدين الإسلامي بعد ذلك .

****

عمرته وحلّ من إحرامه واستخلف على مكة عتّاب بن أسيد ومعه معاذ بن جبل وخرج متّجهاً إلى المدينة بمن معه من المهاجرين والأنصار .

****

عام الوفود :

يُطلق على العام التاسع للهجرة (بعام الوفود) ؛ وذلك لكثرة الوفود التي جاءت من أنحاء الجزيرة العربية إلى المدينة ، لتعلن إسلامها أمام الرسول (صلى الله عليه وآله) ، والتي يزيد عددها على سبعين وفداً ، وكان ذلك بعد غزوة تبوك .

بعد فتح مكة بدأت القبائل العربية تتوافد على المدينة المنورة، لتعلن إسلامها أمام الرسول (صلى الله عليه وآله) ، فإستقبلهم بكل لطف ورحمة وقبل إسلامهم ؛ لذلك تبدلت الحروب والصراعات بين قبائل الجزيرة العربية إلى أمن وأمان ، يقول الشيخ الطبرسي في كتابه إعلام الورى بأعلام الهدى : «فلما أسلمت ثقيف أقبلت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفود العرب فدخلوا في دين الله أفواجاً» ، ونزل قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ .

ومن أبرز الوفود وفد أسد ووفد كنانة ووفد هلال بن عامر .

****

غزوة تبوك :

كانت آخر مغازي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وهي المعروفة بغزوة العسرة ، وتعرف أيضاً بالفاضحة الافتضاح المنافقين ، وكانت في رجب سنة ٩ هـ قبل حجة الوداع ، فقد جهّز (صلى الله عليه وآله وسلم) جيش المسلمين في عام العسرة وخرج بهم إلى ملاقاة الروم الذين تجهزوا للهجوم على المدينة المنورة ، كان عدد جيش المسلمين ثلاثين ألفاً ، وتبوك : موضع بين وادي القرى والشام .

١ . أهداف غزوة تبوك :

أ . تثبيت إمامة أمير المؤمنين علي (عليه السلام) :

عمل النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) على بناء العوامل التي يحفظ بها الإسلام ويحصنه من الداخل

والخارج ، وخصوصاً من الداخل ، فإن المعركة القادمة سوف تكون مع المنافقين ، فكان لا بُد من مجموعة إجراءات تفضح نواياهم ، وتكشف حقيقتهم ، وكان من هذه الإجراءات ممارسة إظهار شخص الإمام الجديد علي (عليه السلام) .

ب . نشر الإسلام في شمالي الجزيرة العربية :

بعد الانتهاء من نشر الإسلام في وسط الجزيرة وجنوبها ، كان على الدولة الإسلامية ، لتثبيت نفوذها خارج تخوم الجزيرة العربية ، أن تبذل جهوداً لإخضاع هذه القبائل التي ظلت مستقلة عن الدولة في صحراء بلاد الشام والجزيرة .

ج . القيام بحملة وقائية في مواجهة احتمالات الحرب من الشمال : كان البيزنطيون يحاولون إعادة بناء تحالفاتهم مع القبائل العربية في الشمال ، وكان الهدف هو حماية بلاد الشام من إغارة القبائل العربية من جهة ، ومن جهة اخرى حمايتها من الدولة الاسلامية ، فإن معركة مؤتة وذات السلاسل اثبتت للبيزنطيين ان تلك الدولة الاسلامية باتت تشكل تهديداً واضحاً لها من تخوم دولتها ، فلا بد من التحالف الدفاعي لحراسة بلاد الشام .

إضافةً إلى ذلك ، إن الموضوع التجاري والاقتصادي كان حاضراً في الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية ، فلا بد من تأمين علاقة مع تلك القبائل لحفظ الخط التجاري بين بلاد الحجاز وبلاد الشام ، فكان لا بد من حملة عسكرية ، وإن لم تؤد إلى الاقتتال والاشتباك – تظهر فيها الدولة الإسلامية حضورها وقوتها ، وأن تعقد اتفاقيات مع تلك القبائل العربية المنتشرة شمالاً .

وذكر اليعقوبي أن سبب خروج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى تبوك من أرض الشام أنه خرج للطلب بدم جعفر بن أبي طالب (عليه السلام) الذي استشهد في معركة مؤتة .

عمل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على تجهيز الجيش وحض اهل الغنى على النفقة في سبيل الله ورغبهم في ذلك ، فحمل من أهل الغنى ما يقدرون عليه ، واشتركت نساء المسلمين في الإنفاق على غزوة تبوك بما لديهن من معاضد ، وخلاخل ، وأقرطة وخواتيم .

لقد عَمِدَ المنافقون إلى إثارة المشاكل بين المسلمين في غزوة تبوك ، فحينما طلب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الجد بن قيس وهو من أحد بني سلمة أن يخرج مع المسلمين لحرب الروم فأجاب بقوله : يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني ؟ فو الله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجبا بالنساء مني ... (إلى الروم) أن لا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله (صلى

الله عليه وآله وسلم) ، وقال : قد أذنتُ لك ، وفيه نزل قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لقد كان خائفاً من فتنة النساء فسقط في فتنة أكبر منها وهي فتنة تخلفه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ولما سار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تخلّف عنه عبد الله بن أُبي فيمن تخلّف من المنافقين وأهل الريب .

لما خرج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى تبوك خلّف الإمام علي (عليه السلام) على أهله في المدينة وأمره بالإقامة فيهم ، لأن حركة المنافقين اخذت تزداد في المدينة بعد لافتح مكة ، وهذا يُشكّل خطراً كبيراً على الإسلام ، ويتطلب ان يبقى في المدينة شخص قادر على مواجهة هذا الخطر كالإمام علي (عليه السلام) ، لذا أرجف المنافقون ، وقالوا : ما خلّفه إلا استثقالاً وتخففاً منه ، فأخذ علي (عليه السلام) سلاحه ولحق بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخبره بما قالوا ، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : كذبوا ولكني خلّفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلَّا أنه ليس نبيٌّ بعدي " .

وبعد أن وصل (صلى الله عليه وآله وسلم) الى تبوك أقام فيها عشرين ليلة ، وقام بعدة اعمال من بينها بناء مسجد تبوك ، وعقد مجموعة من الاتفاقيات والمعاهدات مع القبائل الكبرى المستوطنة جنوب بادية الشام ، وأسلم كثيرٌ منهم ، كما أتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يُحنة بن رُؤبة صاحب أيلة فصالح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية وكتب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لهم كتاباً .

أما موقف هرقل ملك الروم ، فقد بعث رجلاً من غسان يستخبر حال النبي (صلى الله عليه وسلم) وينظر إلى علامات موجود فيه ، وهي: خاتم النبوة بين كتفيه ، وأنه لا يقبل الصدقة ، ولا حمرة في عينيه ، فلما أخبره الرجل بهذه العلامات فيه (صلى الله عليه وآله وسلم) دعا هرقل قومه التصديق بنبوة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) فأبوا حتى خاف على ملكه ، وبقي هرقل موضعه لم يتحرك ولم يزحف ، فرجع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة قافلاً .

النتائج العامة لغزوة تبوك :

١. شكلت معركة تبوك نصراً حاسما للمسلمين على الإمبراطورية الرومانية .

٢ . استطاع رسول الله (صلى الله عليه وآله

المناهضة للإسلام ، تعلن إسلامها ، أو تعقد معاهدات واتفاقيات مع المسلمين .

٣. برز المسلمون في هذه الغزوة كقوة منظمة تملك العقيدة القوية والعتاد القوي فكان هذا إنذاراً حقيقياً لكل القوى خارج دار الإسلام ، وتحذيراً لها من التعرض للمسلمين .

****

المباهلة :

المباهلة : إشارة إلى ما وقع بين الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ونصارى نجران إثر محاورة دارت بينهما ، فبعد أن أصرّوا على عنادهم دعاهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المباهلة (الملاعنة) والدعاء بإنزال لعنة الله على الكاذب من الطرفين المتلاعنين ، حيث اصطحب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) معه في يوم المباهلة أمير المؤمنين (عليه السلام) وفاطمة (عليها السلام) والحسنين (عليهما السلام) وكانت هذه الواقعة في يوم ٢٤ ذي الحجة سنة ٩ هـ .

وكما يروي لنا الشيخ المفيد بقوله : " لما انتشر الإسلام بعد الفتح وقوي سلطانه ، وفد إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الوفود ، فمنهم من أسلم ومنهم من استأمن ليعود إلى قومه.. وكان فيمن وفد عليه أبو حارثة أسقف نجران في ثلاثين رجلاً من النصارى ، منهم العاقب والسيد وعبد المسيح ، فقدموا المدينة وقت صلاة العصر، وعليهم لباس الديباج والصلب ، فصار إليهم اليهود وتساءلوا بينهم فقالت النصارى لهم : « لستم على شيء» وقالت لهم اليهود: « لستم على شيء» وفي ذلك أنزل الله سبحانه : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ ، فلما صلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) العصر توجهوا إليه يقدمهم الأسقف ، فقال له : " يا محمد، ما تقول في السيد المسيح ؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : " عبد الله اصطفاه وانتجبه ، فقال الأسقف : " أتعرف له يا محمد أباً ولده " ؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : " لم يكن عن نكاح فيكون له والد " ، قال : " فكيف قلت إنه عبد مخلوق ، وأنت لم تر عبداً مخلوقاً إلا عن نكاح وله والد " ؟ فأنزل الله تعالى الايات من سورة آل عمران إلى قوله : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

وفي يوم المباهلة المُتفق عليه ، رأى نصارى نجران ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يخرج

معه للمباهلة أهل الكبر والشدة من أتباعه ، ولا أهل الغنى والمال والثروة من أصحابه ، ولا أهل الجاه الدنيوي من أتباعه ، وإنما جاء بالأعزة من أهل التخشع وبقية الأنبياء وصفوة الصفوة المختارة ، رجع بعضهم إلى البعض الآخر متسائلاً والخوف من هذه الشموس تملأ القلوب، وجعلوا يلتمسون المخرج من ورطتهم هذه التي ستجلب عليهم الندامة والهلاك ، وهم الذين ما زال كلام صاحبهم يدوي في أذانهم، وذلك لأن واحداً من ذلك الوفد قال لهم يا قوم : " إن باهلنا - محمد - بقومه باهلناه ، فانه ليس بنبي، وان باهلنا بأهل بيته خاصةً فلا نباهله فانه لا يقدم على أهل بيته إلا وهو صادق " ، فما أن رأى القوم أهل بيت النبي بين يديه حتى فزعوا وجبنت قلوبهم ، وقال الأسقف : " أرى وجوها لو سأل الله بها أحداً أن يزيل أحداً من مكانه لا زاله ، أفلا تنظرون محمداً رافعاً يديه ينظر ما تجيبون به وحق المسيح إذا نطق بكلمة لا نرجع إلى أهل ولا إلى مال ، وجعل يصيح بهم : " ألا تنظرون إلى الشمس قد تغير لونها والأفق تتجع فيه السحب الداكنة ، والريح تهب سوداء وحمراء ، وهذه الجبال يتصاعد منها الدخان، لقد أطل علينا العذاب.. فقالوا للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : نعطيك الرضا فأعفنا عن المباهلة فصالحهم على الجزية وانصرفوا خائبين خاسرين وقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : " والذي نفسي بيده ان الهلاك قد تدلى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولأضطرم عليهم الوادي ناراً ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا " .

* *

حجة الوداع وبيعة الغدير :

حدثت في السنة العاشرة للهجرة ، وهي الحجّة الوحيدة الّتي حجّها النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد الهجرة ، وقد ذهب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى مكة ثلاث مرّات معتمراً ، ويذكر المؤرخون أنّه لم يحجّ إلا مرّة واحدة ، وهي الّتي سبقت وفاته بعدّة شهور ، وقد سُمّي حجّه هذا بحجّة الوداع ؛ لأنّه كان آخر حجّ في حياته ، وقد ودّع المسلمين فيه ، وتسمّى أيضاً هذه بحجّة البلاغ لمناسبة نزول آية التبليغ فيها ، وتسمّى أيضاً بحجّة الإسلام ، باعتبارها الحجّة الوحيدة التي أدّى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الحج إبّان بعثته طبقاً للشريعة المحمدية الشريفة ، وأنّ جبرئيل أتاه أثناء عودة وفود الحجيج على النّبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في منطقة غدير خم في الثامن عشر من ذي الحجة يخبره بالأمر الإلهيّ (آية التبليغ) بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ القاضية بتنصيب الامام علي (عليه السلام) إماماً للمسلمين ووصيّاً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فامتثل

للأمر الإلهيّ، وأعلمَ الجميع بما نزل به جبرئيل مع أخذ البيعة لعلي (عليه السلام) ، فخطب بالناس إلى أن قال : " فأعلموا معاشر الناس ، فإن الله قد نصبه لكم ولياً وإماماً ، وفرض طاعته على كل أحد ، ماض حكمه ، جائز قوله ، ملعون من خالفه ، مرحوم من صدقه ، اسمعوا وأطيعوا ، فإن الله مولاكم ، وعلي إمامكم .

ثم الإمامة في ولدي من صلبه إلى القيامة ، لا حلال إلا ما أحله الله ورسوله وهم ، ولا حرام إلا ما حرم الله ورسوله وهم ، فما من علم إلا وقد أحصاه الله فيَّ ، ونقلته إليه ؛ فلا تضلوا عنه ، ولا تستنكفوا منه ، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به ، لن يتوب الله على أحد أنكره ، ولن يغفر له ، حتماً على الله أن يفعل ذلك ، أن يعذبه عذاباً نكراً أبد الآبدين ، فهو أفضل الناس بعدي ، ما نزل الرزق ، وبقي الخلق ، ملعون من خالفه ، قولي عن جبرئيل عن الله ، فلتنظر نفس ما قدمت لغد ، ثم رفعه إلى السماء حتى صارت رجله مع ركبة النبي « صلى الله عليه وآله » وقال : معاشر الناس ! هذا أخي ، ووصيي ، وواعي علمي ، وخليفتي على من آمن بي ، وعلى تفسير كتاب ربي " .

وفي رواية أنهُ قال : " اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، والعن من أنكره ، وأغضب على من جحد حقه .

فعند ذلك بادر الناس بقولهم : " نعم ، سمعنا وأطعنا لما أمرنا الله ورسوله ، بقلوبنا ، وأنفسنا ، وألسنتنا ، وجميع جوارحنا " ، وبايع الناس الإمام علي (عليه السلام) بحضور النبي « صلى الله عليه وآله » ، ثم تفرقت جموع الحجيج من غدير خم نحو بلدانهم كالعراق والشام واليمن ، وتوجه النبي « صلى الله عليه وآله » بأصحابه صوب المدينة .

****

مرض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ووفاته :

في يوم الخميس الذي سبق وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الله بأربعة أيام ، أراد رسول الله أن يوجه ضربة نحو مطامع قريش ومكائدها السياسية ، وكان أن وقعت الرزية ، وحيل بين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب الذي كان يريد أن يضمن فيه حفظ الأمة الإسلامية من الانحراف والضياع من بعده ، وفي ذلك اليوم ، وفي البيت نساء ورجال قد ضرب بينهم حجاب ، وقد اجتمع الصحابة في داره ، ولحق بهم من تخلف عن جيش أسامة الذي كان قد تثاقل ولم ينفذ أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالتحرك ، وكان قد اشتد برسول الله

(صلى الله عليه وآله وسلم) وجعه ، وأدرك أن المتآمرين قد أحبطوا خطته ، وها هم قد مكثوا في المدينة وحضروا داخل بيته ، فحاول أن يعرقل المؤامرة السياسية التي كان يتوقعها من بعد وفاته ، فقال للحاضرين عنده : « ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده » ، « أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده» إذ كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يريد أن يكتب كتاباً ينص فيه على ولاية الامام علي (عليه السلام) ، فحاول بعضهم تعطيل الحركة النبوية ، فقالوا : « إن النبي يهجر ، وعندنا كتاب الله » ، فتنازعوا ، واختصموا ، واختلفوا ، أو كثر اللغط ، فقال (ص) « قوموا عني ، دعوني ، ولا ينبغي عند نبي تنازع » .

وفي اليوم نفسه الذي توفي فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وهو يوم الإثنين ، انتقل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من دار عائشة إلى دار ابنته فاطمة (عليه السلام) ، ثم قال : « ادعوا لي علياً بن أبي طالب ، وأسامة بن زيد ، انطلقا بي إلى فاطمة » .

وفي اللحظات الأخيرة ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ادعوا لي أخي » ، وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) قد بعثه في حاجة ، فجاءه علي (عليه السلام) فقال له : « أدن مني » فدنا علي (عليه السلام) ، فاستند إليه فلم يزل مستنداً إليه يكلمه حتى بدت عليه علامات الاحتضار فأخذ علي (عليه السلام) رأسه ، ووضعه في حجره ، فأغمي عليه .

وكان آخر ما قاله : « الصلاة ، الصلاة ، فأخذ علي (عليه السلام) رأسه ، ووضعه في حجره فقبض ملك الموت روح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويد أمير المؤمنين (عليه السلام) تحت حنكه ، وفاضت نفسه بين نحر علي (عليه السلام) وصدره ، وكان ذلك يوم الاثنين من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة .

والحمد لله رب العالمين ...